هرقل: لأبي سفيان ومن معه من كفار قريش فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدمي هاتين وقد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أكن أظن أنه منكم (أي: من العرب) فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت قدميه). ومع ذلك ركبوا رءوسهم واستمروا في غيهم يعمهون.

* * *

الصدق منجاة

والإنسان الصادق تستوي سريرته وعلانيته ويكون باطنه مثل ظاهره بل خيراً منه، ولذلك قيل الصدق: هو قول الحق في مواطن الهلكة بحيث يوافق السر العلن ويجهر المرء بما يعتقد أنه حق. فالصادق يقول الصدق ولو تعرض إلى الموت أو القتل فحقيقة الصدق أن تصدق في موطن لا ينجيك منه إلا الكذب فقد كان الحجاج بن يوسف الثقفي يخطب ذات مرة فأطال الخطبة فقال رجل من المصلين: الصلاة فإن الوقت لا ينتظرك. فغضب الحجاج وأمر بحبسه، فأتاه نفر من قومه وزعموا أنه مجنون. فقال الحجاج: إن أقر صاحبكم على نفسه بالجنون خليت سبيله فقيل للرجل ذلك فأبى أشد الإباء وقال: معاذ الله أن أزعم أن الله ابتلاني وقد عافاني ورفض أن يكذب لإطلاق سراحه. وبلغ ذلك الحجاج فقال والله ما ضره الصدق عندي وعفا عنه لصدقه ولذلك ورد في الأثر: (عليك بالصدق وإن رأيت فيه الهلكة فإن فيه النجاة وإياك والكذب وإن ظننت أن فيه النجاة فإن فيه الهلاك) أو بعبارة أخرى: (عليك بالصدق وإن كنت ترى أنه يضرك فإنه ينفعك وإياك والكذب وإن كنت ترى أنه ينفعك فإنه يضرك) فما عز كاذب ولو نال النجوم بيديه ولا ذل صادق ولو اجتمعت الدنيا عليه.

وقيل للحارث المحاسبي ما علامة الصدق؟ فقال: الصادق هو الذي لا يبالي ولو خرج كل قدر له في قلوب الخلق ولو جفاه كل من في الأرض ولذلك قال الله عز

وجل وهو يتكلم عن جزاء الصادقين يوم القيامة: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

فقد ينفع الكذب صاحبه في الدنيا ولكنه لن ينفعه في الآخرة فلا ينفعه فيها إلا الصدق فقد يكذب الإنسان في الدنيا من أجل تحقيق بعض المكاسب الدنيوية كنيل ترقية أو للحصول على بعض المال. أو ليدفع عنه غضب رئيسه في العمل أو للتخلص من تبعة قد تلحقه إذا صدق أما المؤمن فهو لا يكذب خشية فقد مال أو فوات منصب أو جاه أو خوفًا من إنسان؛ لأنه لا يخشى إلا الله، فالصدق يمده بالقوة التي تجعله يستمر على ما هو عليه من الحق، ويحول بينه وبين التردد والنكوص على عقبيه كما يحدث لكثير من الناس، يقول عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١] وقوله أيضًا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠] وذلك بخلاف المؤمنين الذين قال الله في شأنهم في سورتنا هذه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] وانظر في ذلك إلى قول ابن تيمية رحمه الله: (ما يفعل أعدائي بي؟ جنتي في صدري وقتلي شهادة ونفيي سياحة وسجني خلوة وعبادة، فنحن في سعادة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بحد السيوف).

وعد الصدق

فالمؤمن ثابت على الحق لا يتلون ولا يتغير بل يظل صامداً صابراً محتسبًا لا تلين له قناة، لا يساوم أو يجامل أو يهادن أو يخاف في الله لومة لائم، وغير ذلك من الصفات التي ذكرناها ونحن نتكلم عن أهل الرشد فما أشبه الراشدين بالصادقين فكلاهما لا ينظر إلى هذه الدنيا ولا إلى زينتها الزائلة، وكلاهما لا يرجو إلا رحمة ربه ولا يطمع إلا في فضله، ومطمئن إلى وعد ربه، فالصادق واثق أن الله لن يضيع جهده ولن يبخسه حقه أو يخيب سعيه فالله لا يخلف وعده لا في الدنيا ولا في الآخرة. يقول عز وجل عن المرسلين: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الانبياء: ٩]. وهم الذين كذبوا المرسلين وتعجلوا العذاب كما في قوله عز وجل: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الاعراف: ٧٠] وقولهم أيضًا: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥] ويقول أيضًا في صدق وعده في الدنيا: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

أما في الآخرة فيقول الشيطان وهو يتبرأ ممن اتبعوه في الدنيا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] ويقول أهل الجنة حينما يدخلونها: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤] ويقول أيضًا في أصحاب الجنة التي وعدهم إياها في الدنيا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الاحقاف: ١٦]. فوعد الله صادق لا يتخلف في الدنيا ولا في الآخرة: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات: ٥] وقوله عز وجل: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨] فهو وعد صادق غير مكذوب وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] ويقول أيضًا: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [النساء:

١٢٢] فالمؤمن يثق في وعد ربه وإنه واقع لا محالة: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ [المرسلات: ٧] ويقول الله عز وجل على لسان المؤمنين في غزوة الأحزاب: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢] وذلك بخلاف قول المنافقين: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

وهناك قصة «الثلاثة الذين خُلِّفُوا عن غزوة تبوك» ولكنهم صدقوا ولم يتعللوا بأعذار كاذبة كما فعل المنافقون ولذلك تاب الله عليهم ويكفي أن الله عَقَّب على قصتهم في سورة التوبة بقوله عز وجل: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٨-١١٩] وقد ذكر قصة أحد هؤلاء الثلاثة وهو: كعب بن مالك شاعر الأنصار في حديث طويل رواه الشيخان في «الصحيحين».

* * *

إن تصدق الله يصدقك

وأيضًا ما رواه النسائي عن شداد بن الهاد رضي الله عنه أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبي ﷺ فآمن به واتبعه، ثم قال أهاجر معك، فأوصى به بعض أصحابه فلما كانت غزوة غنم النبي ﷺ سبيًا، فَقسَّم، وقَسَم له، وكان يرعى ظهرهم، فأعطى أصحابه ما قسم له فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قِسْم قسمه لك النبي ﷺ.

فأخذه فجاء به إلى النبي ﷺ وقال: ما هذا؟ قال: «ما قسمته لك». قال ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى هاهنا - وأشار إلى حلقه - بسهم فأموت فأدخل الجنة، فقال: «إن تصدق الله يصدقك» فلبثوا قليلاً ثم نهضوا في قتال العدو

فأتي به إلى النبي ﷺ محمولاً قد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي ﷺ: «**أهو هو؟**» قالوا: نعم، قال: «**صدق الله فصدقه**» ثم كفنه في جبته ثم قدمه فصلى عليه فكان فيما ظهر من صلاته: «**اللهم هذا عبدك خرج مهاجِراً في سبيلك فقتل شهيداً، وأنا شهيد على ذلك**».

نعم صدق الله فصدقه الله، وانظر أيضًا إلى قول عمر بن الخطاب: (اللهم ارزقني الشهادة وأمتني في بلد رسولك ﷺ). فاستجيبت دعوته الصادقة فمات شهيداً وهو يصلي الفجر في محراب رسول الله ﷺ ودفن بجواره وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول في الحديث الذي رواه مسلم: «**من سأل الله الشهادة بصدق بلغه اللَّه منازل الشهداء وإن مات على فراشه**» فكن صادقًا يجعل الله لك لسان صدق في الآخرين ويجعل لك عنده قدم صدق ومقعد صدق كما قال عز وجل: ﴿**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ [يونس: ٢] وقوله إيضًا: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ**﴾ [القمر: ٥٤-٥٥] لنختم كلامنا عن الصدق بهذا الدعاء القرآني المبارك: ﴿**وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا**﴾ [الإسراء: ٨٠].

* * *

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٦-١٨].

علم الله أزلي وشامل

لايزال الكلام عن هؤلاء الأعراب الذين ادعوا الإيمان فكذبهم الله في دعواهم ثم بين الصفات التي ينبغي أن يتحلّى بها المرء حتى يكون مؤمنًا حقًّا ثم واصلت الآيات تفنيد مزاعمهم فقال عزوجل: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أي أتخبرون الله بدينكم الذي أنتم عليه بقولكم: (آمنا) والحال أنه يعلم ما في الكون كله فهو ليس بحاجة إلى إعلامكم: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] فالله يعلم ما في قلوبكم وهو الذي يخبركم بما فيها ولا يستمد العلم أو يتلقاه منكم كما قال عز وجل: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣].

فهم قد أخطأوا وخلطوا الأمور إذ قاسوها على عقولهم القاصرة التي لا تعلم إلا إذا مُدَّتْ بالعلم أو زودت بالمعرفة يقول عز وجل: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨] فهو عز وجل كما قال عن نفسه: ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥] وانظر إلى قول الملائكة: ﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]. وقول الرسل الكرام يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ

﴿فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]. فعلم الإنسان يسبقه الجهل ويعتريه النسيان فهو علم طارئ مستمد من الأشياء بخلاف علم الله الأزلي فهو علم ذاتي ولذا يتصف بالإحاطة والشمول كما قال عز وجل: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] والآيات التي تتكلم عن علم الله كثيرة ويصعب حصرها أو استقصاؤها.

فلا شيء يوجد في الكون إلا والله يحيط به علمًا، ولو لم يعلمه الله لكان معنى ذلك أنه غير موجود؛ لأنه من المحال أن يوجد شيء في الكون ويخفى علمه على الله؛ لأن الله هو الذي خلقه وأوجده. فهو يستمد وجوده من الله أصلاً فلا يوجد موجود إلا بإيجاد الله له. ولذلك رد الله على هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أندادًا وجعلوها آلهة فقال عز وجل في الرد عليهم: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ [الرعد: ٣٣] فقوله: ﴿تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ﴾ أي أتنبئونه بأمر لا يعلمه؟ وهذا محال فدل ذلك على أن هذه الآلهة التي يتكلمون عنها معدومة لا موجودة. كما أنها لا تنفع عابديها ولا تدفع عنهم الضر بل ولا تشعر بعبادتهم كما قال عز وجل: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس: ٢٩] فهي ضعيفة عاجزة والإله الحق لا يكون كذلك.

والله لم يقل لهم: (أم تنبئونه بآلهة غير موجودة) ولكنه قال: ﴿بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ﴾ فهو عز وجل قد نفى العلم ولم ينف الوجود؛ لأن نفي العلم يتضمن نفي الوجود وهذه الآية لا يمكن أن يقولها إلا الله فالبشر لا يستطيعون أن يدعوا ذلك فقد يكون الشيء موجودًا ولكنك لا تعلم بوجوده فالبشر إذا علموا شيئًا فإنه يخفى عليهم أشياء فلا يكون نفيهم للعلم نفيًا للوجود بالضرورة فنفي العلم بالنسبة لهم لا يستلزم نفي الوجود فهم يجهلون أكثر مما يعلمون وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم

﴿مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

فنفى اللَّه هذه الآلهة المزعومة بأبلغ عبارة مع ما في ذلك من التهكم بهم والسخرية من عقولهم. وفي سورة «يونس» آية مشابهة لآية سورة الرعد ولكنها تنفي وجود الآلهة في السموات فضلاً عن الأرض وهي قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ويعبدون من دون اللَّه ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شُفعاؤُنا عند اللَّه قل أتنبئون اللَّهَ بما لا يعلمُ في السمواتِ ولا في الأرضِ﴾ [يونس: ١٨]، فاللَّه لا يخفى عليه شيء في السموات ولا في الأرض كما قال عن نفسه: ﴿وهو اللَّهُ في السَّمواتِ وفي الأرضِ يعلَمُ سِرَّكم وجهركم ويعلم ما تكسبون﴾ [الأنعام: ٣].

* * *

سوء الأدب مع الله

وهؤلاء الأعراب ليس أدلّ على أن الإيمان لم يدخل قلوبهم من تصورهم أن اللَّه لا يعلم حقيقة ما في قلوبهم من الإيمان مع أنه عزَّ وجلَّ يعلم كل الأشياء التي في السموات والأرض والتي من جملتها ما أخفوه في قلوبهم من حقيقة إيمانهم، فهو عزَّ وجلَّ يعلم إذا كانوا مؤمنين أم لا. وفي هذه الآية توبيخ لهم إذ كيف يظنون أن من يعلم ما في السموات والأرض يخفى من أمرهم شيء حتَّى يظهروا خلاف ما في قلوبهم.

وسبب ظنهم هذا هو جهلهم بصفات اللَّهَ عزَّ وجلَّ وما ينبغي له من كمال العلم والعظمة والقدرة، ولذلك قيل في القاعدة الأصولية: (العلم بالشيء فرع عن تصوره)، ومن هنا قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿أئفكًا آلهة دونَ اللَّه تُريدُون فمَا ظَنُّكُم بربِّ العَالَمين﴾ [الصافات: ٨٦-٨٧]، وقالها أيضًا إلياس عليه السلام لقومه: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً وتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخَالِقِينَ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبائكُم الأوَّلين﴾

[الصافات: ١٢٥-١٢٦]، وقالها أيضًا نوح عليه السلام لقومه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣، ١٤].

ودلَّت الآية على أن الإيمان إنما يكون في القلب لا يطلع عليه ولا يعلم حقيقته إلا الله، فالإخبار عنه من باب تعليم الله بما هو به أعلم وهو سوء أدب وسوء ظن بالله عز وجل إذ فيه تجاوز للحدود التي ينبغي للعبد أن يلتزم بها ويقف عندها ولا يتخطاها، كما أنه فيه تزكية للنفس وهو مما نهى الله عنه كما في قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢] وقوله أيضًا عز وجل في اليهود: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩].

ولذلك قال بعدها: ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٥٠] كما أن الفضل في طهارة القلوب يرجع إلى الله عز وجل كما في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١] ولذلك فلا ينبغي للعبد أن يزكي نفسه ولا يخبر أحدًا بذلك فإن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء والله يحول بين المرء وقلبه فليشكر العبد ربه على ما وهبه إياه وليسأله التوفيق والثبات.

* * *

الحنان المنان

وبعد أن بين الله لنا شروط الإيمان الصحيح وأماراته أوضح لنا في هذه الآية علامة فساد دعوى الإيمان وهو وجود المن كما قال الله عز وجل: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ فهؤلاء الأعراب حينما أعلنوا إسلامهم بين يدي الرسول ﷺ اعتبروا ذلك نعمة يمتنون بها عليه وتقتضي منه أن يثيبهم عليها. والمن ذكر الأيادي وتعداد الأفضال تعرُّضًا للشكر والثناء، وأصل المن القطع كأن المنعِم يقطع بإحسانه حاجة المحتاج أي بالعطاء الذي يقطع حاجة السائل ويغنيه. والمن من العباد مذموم وهو مِنَ

الله محمود؛ لأنه هو المتفضل على عباده في الحقيقة وغيره لا يملك شيئًا فلا يليق به أن يمن بما لا يملك. أما الله فهو المنان الوهاب فهو صاحب الفضل عليهم إذ أرشدهم إلى الخير وهداهم إلى الإسلام.

والعبد إذا كان مخلصًا ومؤمنًا حقًّا فإنه يرى نفسه مغمورًا بإحسان الله بل ويرى تقصيره وتفريطه في جنب الله ولو دخل الإيمان قلبه لقضى عمره حامدًا لربه على ما حباه من نعم لا تعد ولا تحصى. والمنان من الناس هو الذي يعطي العطاء ثم يذكِّر به من أعطاه ويعدد له ما فعله معه من المعروف مرة بعد أخرى كأن يقول: (أعطيتك كذا وفعلت لك كذا وصنعت معك كذا) وهو تعيير وتكدير تنكسر منه القلوب ولذا كان مذمومًا يمحق الثواب ويبطله ويغضب الله عز وجل كما في قوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى**﴾ [البقرة: ٢٦٤] ولذلك فهو يعتبر من لؤم النفس وخوارم المروءة كما قال الشاعر:

وإذا امرؤ أسدى إليَّ صنيعة وذكرنيها مرة للئيم

ولذلك فقد كان الأفضل له ألا يعطي، ومن هنا فالمانّ والبخيل يشبه أحدهما الآخر ولذا يقال: (صنوان من منح سائله ومنَّ، ومنْ منع نائله وضن). وشأن المؤمنين ألا يمنوا على أحد أو ينتظروا ثوابًا ممن أسدوا إليه معروفًا كما في قوله: ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا**﴾ [الإنسان: ٩] بينما شأن من لم يدخل الإيمان قلوبهم ما وصفهم الله به: ﴿**يُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا**﴾ [آل عمران: ١٨٨].

فالمنة من العباد إنما هي بالقول وأما من الله فهي بالفعل أي هي أفعال لها آثار فهو الخالق الرازق الذي يهدي عباده إلى مافيه نفعهم ومصلحتهم في الدنيا والآخرة ولو علموا فضل الله عليهم في هدايتهم للإسلام والإيمان لما منُّوا بل لشكروا فمقامهم ينبغي أن يكون مقام الشاكرين لا المانين، يقول عز وجل: ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**﴾ [النحل: ٥٣] والرسول ﷺ أكبر منة ونعمة من الله لعباده فببعثته أخرجهم من

الظلمات إلى النور يقول عز وجل: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤] ولذلك قال لهم النبي ﷺ يوم حنين كما في الحديث المتفق عليه: «ألم أجدكم ضُلالاً فهداكم اللهُ بي؟» فقالوا لله المنة ولرسوله وصدق الشاعر إذ يقول:

إذا ما لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يجني عليه اجتهاده

وهؤلاء الأعراب تصوروا أنهم بدخولهم في الإسلام قد أسدوا إلى الرسول ﷺ نعمة تقتضي الشكر والإحسان فبين الله لهم أن المنتفع بالدين في الدنيا والآخرة هم الذين آمنوا، أما الله فهو غني عن عباده وهم الفقراء المحتاجون إليه فهم لا ينبغي لهم أن يمنوا فهم الممنون عليهم فلا ينبغي أن يعكسوا الأمور ولذلك فالمنُّ نوعٌ من التعدِّي والتجاوز المنهيِّ عنه في السورة وهو أيضًا صورة من صور التقدم المحظور بين يدي الله ورسوله ولذلك رد الله عليهم في شأن مزاعمهم الكاذبة ونهاهم عن المَنّ بقوله: ﴿لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ﴾ وذلك بخلاف الحال حينما ادَّعوا الإيمان فإنه لم ينههم عن التلفظ بذلك ولم يقل لهم: (لا تقولوا آمنا) كما نهاهم عن المَنّ بقوله: ﴿لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ﴾ فالمَنّ مذموم من الناس إلا في حالة واحدة وهي كُفران النعمة وإنكار الجميل وجحود الفضل فلا بأس بالمن بغرض التذكير ولذا قيل: (إذا كفرت النعمة حسنت المنة).

والآيات التي ورد فيها المن منسوبًا إلى الله في القرآن كثيرة منها: ﴿كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤] وقوله: ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩٠] وقوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الصافات: ١١٤] وأعظم المن إنما يكون في الآخرة كما في قوله عز وجل: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧] وهو من العباد مذموم ولا يتأتى إلا من المستكبرين قال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢].

السر في العدول إلى لفظ «الإيمان»

ونلاحظ في الآية العدول عن الإسلام إلى الإيمان وذكر لفظ «الهداية» يقول عز وجل: ﴿قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾ وذلك للإشارة إلى أن المن إنما هو بالإيمان دون الإسلام الذي هو استسلام بالجوارح ينفعهم فقط في الظاهر لحقن دمائهم وأن تجري عليهم أحكام الإسلام الظاهرة كالتناكح والمواريث أما الإيمان فهو ما ينبغي أن يعتد به ويُحرص عليه فهو أرقى من الإسلام كما دل حديث جبريل عند مسلم على ذلك ولذلك قال الخطابي: كل مؤمن مسلم ولكن ليس كل مسلم مؤمنًا فالإسلام أعم والإيمان أخص.

ونلاحظ أيضًا أنه أضاف الإسلام إليهم: ﴿لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ﴾ وذلك لتوهينه ولبيان أنه ليس مما يعتد به أو يمنُّ به فهو إسلام جدير بألا ينسب إلا إليهم إذ ما صدر منهم إلا عن خوف واستسلام أو الرغبة في الحصول على بعض المنافع الدنيوية فقوله: ﴿إِسْلامَكُمْ﴾ أي: الذي عندكم إسلام ولذلك قال في الآية قبل ذلك: ﴿وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ ولم يقل: (ولكن أسلمتم) لئلا يكون تصديقًا لهم في الإسلام أيضًا أو إقرارًا لهم على قولهم. أما كلمة: (الإيمان) فقد جاءت في الآية مجردة دون إضافة بخلاف كلمة الإسلام الذي تلفظت به ألسنتهم فنسبه إليهم أما الإيمان فلم يعمر قلوبهم فجردهم منه.

وقوله: ﴿هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾ دون الإسلام أي: حسب زعمهم في قولهم: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا﴾. أو بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم مؤمنون. كما أن الهداية لا تستلزم الاهتداء فالله هداهم إلى الإيمان أي: أرشدهم إلى سبيله ودلهم عليه فالهداية تعني مطلق الدلالة سواء أوصلت إلى المطلوب أم لم تصل إليه كقوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] كما أن قوله ﴿هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾ دون الإسلام بيان لفضل

الله عليهم فالله يختار لهم الأفضل والأكمل وأيضًا تحقيقًا للبشرىٰ التي ساقها من قبل في قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فـ(لما) تفيد الترقب وتوقع الحدوث كما أن الله هو الذي يحبب إلىٰ عباده الإيمان ويزينه في قلوبهم فله الحمد وله المنة وله النعمة والثناء الحسن.

وقوله في ختام السورة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. فليس هناك غيب بالنسبة لله عز وجل إذ الغيب شيء مستور، بينما جميع الغيوب مكشوفة له وكيف يغيب عنه شيء وهو الذي خلقه وأوجده من عدم؟! وختام السورة بهذه الآية تأكيد يعلل به جميع ما تقدم في السورة من النواهي والأوامر، فالله يعلم السر وأخفىٰ ومطلع علىٰ ما في قلوبنا بصير بأحوالنا وأعمالنا فلا ينبغي أن نميل مع أهوائنا أو نقصر في طاعة ربنا أو نقدم بين يديه رأينا فأين علمنا من علم الله عز وجل الذي يعلم غيب السموات والأرض؟!

❊ ❊ ❊

OBEIKAN.COM